ذات الثوب الأرجوانى

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

(تنبيه : الـكلام خيالى ولا أصل له ، كما مللت أن أقول وأؤكد فى كل مرة)

— ٥ —

قالوا لى أمس فى البيت : « قم ركب لنا هذه الستائر ! »

فقلت : « ستائر ؟ ؟ يا حفيظ ! ! يا ناس ما هــذا الحال المقلوب ؟ . . فى الشتاء نرفع الأستار ، وفى الصيف الحامى نضعها لتزيد الوقدة وليعظم البلاء ! ؟ أما إن هذا لعجيب ! »

قالوا : « بل هى تحجب الشمس التى بهت منها لون السـجاجيد ... »

قلت : « كونوا منصفين .. السجاجيد قديمة ، وعسير أن نطلب من القديم البالى أن يكون له لون الجديد الطريف الزاهى .. خذوا مثلاً هذه الخادمة العجوز ... هل كان وجهها مغضناً هكذا فى صباها ؟ أو كان شعرها كما هو الآن أبيض ؟ وهل كانت عينها كعين الموتى — لا حياة فيها ولا معنى ولا تعبير ؟ »

قالوا : « دع الخادمة فان ذنبها اليك معروف ... لو كانت شابة لأغضيت عن كل عيب »

فاعترضت على هذا الرأى السيئ والاتهام القبيح لذوقى ، ولـكنهم ردونى إلى موضوع الستائر الذى أردت أن أستطرد عنه إلى حديث آخر ، فقلت : « الأمر لله .. إنمـا ينبغى أن تجيئونى بالأدوات اللازمة كلها .. يعنى السلم والمسامير الصالحة لعمل فنى دقيق كهذا .. وهاتوا أيضاً قلماً (أى فأساً صغيرة) ، فما أستطيع أن أستعمل هذا المعول الضخم ، فانى كما تعلمون رجل رقيق مترف .. ثم لا بد من تمليس الحائط بعد دق المسامير فيه ، وإلا بدا للعين الفاحصة متضرساً غير مستو ... »

فلم يجيئونى بما كان من حقى أن أطالب به وأصر عليه ؛ وإنمـا جاءوا بمطرقة كبيرة أحتاج فى حملها إلى رجلين منى ، ووضعوا فى يدى مسامير كالتى كانت فى فلك نوح ... لا تصلح لهذا الزمن أبداً ... ولـكنى كما لا يعرف القراء رجل تضحية — وما أكثر ما أتقبل بالصبر — ومن غير تعليق طويل — ما يمتحننى به الزمن الغادر . لذلك دعوت الله فى سرى أن يبيض وجهى ، فان سواده الحالى كاف جداً ؛ وشرعت أعمل ؛ ولـكن هل تركونى أعمل كما ينبغى أن يفعلوا لأكسب رضاهم بعرق جبينى ؟ كلا ... فقد أحاطوا بالسلم وجعلوا يصدرون إلىّ أوامر غير معقولة . فقلت لنفسى : « إن جدالهم عبث ، فدعهم فى جهلهم واتركهم ولا تجبهم فانهم يحبون الـكلام . وماذا على أن يثرثروا .. » ولم أجعل بالى اليهم ، ولم أرد عليهم ، ورجوت أن يشغلوا بالحديث والثرثرة عما عدا ذلك . ولـكنهم لـمـا يئسوا من إصغائى لهم جعلوا يهزون السلم لألتفت ، فحدث ما كان لا بد أن يحدث ، وما كان طفل صغير يستطيع أن يتوقعه ؛ ذلك أنى اضطربت وأنا على السلم ، وكنت أهم بدق مسمار ، فوقعت المطرقة على أصابعى لا على رأس المسمار كما كان ينبغى أن تفعل لو كان لها عقل ! فصرخت .. وهل أنا حجر ؟ ؟ ثم ما أشعر إلا والسلم يهوى بى إلى الأرض ... وقد كانت أيديهم عليه ، وكان فى وسعهم أن يمنعوا سقوطى وسقوط السلم معى ، ولـكنى دققت أصابعى فيجب أن يضحكوا ! ! نعم ضحكوا ، بل قهقهوا ، بدلاً من أن يأسفوا أو يقلقوا علىّ ، أو يحزنوا لـمـا أصابنى فى سبيلهم ، فتركوا السلم يفعل بى ما يشاء ... وقد أسمعتهم رأيى الصريح فيهم وفى هذا الـكفران لنعمتى ، والجحود لفضلى ، وفى تعريضى للمضرات ، وفى أنهم إذا حاق بى مكروه فى سبيلهم ضحكوا وسروا وفرحوا جدا .... ثم تركتهم ومضيت أظلع — فوق ظلعى — إلى النافذة ، وكنت أفرك أصابعى لأسويها وأرد اليها استدارتها فقد عجنتها المطرقة ، ولألطف الألم أيضاً فانى لست بحجر كما أسلفت ، وإذا بذات الثوب الأرجوانى واقفة فى شرفتها تضحك كما يضحكون ! ! فنظرت اليها آسفاً وقلتُ — كما قال يوليوس قيصر حينما طعنه بروتس — : « وأنت أيضاً ؟ ؟ » ولولا أن وقع المطرقة على أصابعى لم يفقدنى حبى للحياة ولم يضعف إرادتها فى نفسى لتمثلت بقول القائل : « فيا موت زر إن الحياة ذميمة » ولـكن الحياة ليست ذميمة على الرغم من المسامير العتيقة والمطارق الطائشة التى لا عقل لها فى رأسها الناشف والأهل الجاحدين والحبيبة التى يسرها أن تفرم أصابعك وتلتوى ساقك ، بل هى جميلة — أعنى الحياة ومرضية على كل حال وحميدة كيفما كانت — بل أعنى الحبيبة أيضاً وإن كانت تسخطنى ولا ترضينى ، ولا أدرى مالذتها التى تستفيدها من هذه المكابدة ؟ ؟

والله إن النساء أمرهن عجيب !! هذه ذات الثوب الأرجواني تفتح النافذة وتنظر ثم توليني جنبها ، وما شبعت من وجهها ، ثم تدير لي ظهرها ثم تهز رأسها فينتشر شعرها الجميل ويعود كالشمسية المفتوحة ثم ينسدل على جانبي وجهها ثم ترمي إليّ نظرة سريعة جداً يغيب عني معناها من شدة السرعة — مضافاً اليها البعد — ثم تدخل وتختفي !! ماذا كسبت بالله من هذا ؟؟ . وما حيلتي إلا أن أهز رأسي أنا أيضاً وأقول لنفسي إن أصحاب العقول في راحة ! ولو كانت تسمعني لغضبت ، ولكنها بعيدة فأنا أقول ما أشاء وأنا آمن ! . .

ومكايدة أخرى . . ظهرت — لي — في الشرفة يوماً في ثوب أزرق لا أحبه ، وكنت لابساً ثيابي ومتهيئاً للخروج فما أستطيع أن أقضي حياتي في شرفة — كما تفعل هي — وإذا بها تدخل ثم تعود في ثوب أبيض جميل من الحرير الأبيض له شقتان واحدة على الصدر والأخرى تحتها على سائر البدن إلى القدمين ، وعلى رأسها قبعة بيضاء كقلبها — مجازاً فما فتح لي قلبها إلى الآن — تثني حافتها على حاجبها الأيسر دلالاً . فقلت لنفسي : « إلى أين إن شاء الله ؟؟ وإنها لحادثة فما رأيتها قط تخرج ، بل هي بشرى تنعش الأمل . إذ ما دامت تخرج فلا موجب لليأس ، وإذا بها بعد قليل خارجة من باب البيت ، ولكن مع أهلها !! . فسبحان الله العظيم !! وهل كان لا بد من هؤلاء الأهل ؟ ما فائدتهم أو ما الضرورة اليهم على كل حال ؟؟ ثم إن الأهل لا داعي للحرص على الاتصال بهم وملازمتهم لأنهم في الحقيقة ثمرات المصادفة البحت والاتفاق المحض . الأخ مثلاً شيء يجيء مصادفة .. ولو كان أبي — ولست أتكلم عن نفسي وإنما أضرب مثلاً تأييداً لنظريتي ليس إلا — أقول لو كان أبي مات قبل أن يموت بأربع سنوات أو خمس — وهو قد مات على كل حال ، فما ضر أن يموت قبل ذلك ؟ — لما صار لي أخ ، ولكنه اتفق أن عمر أبي طال أكثر مما كان ينبغي — إذا اعتبرنا الذرية والاسراف الذي لم يدع لنا ميراثاً يستحق الذكر — فصار لي أخ كان من الممكن ألا يكون لو أن أبي كان عاقلاً مقتصداً — على الأقل في الأبناء — وقل مثل ذلك عن الأب والأم وأبناء العم وبنات الخال إلى آخر هذا البلاء الطويل فانهم جميعاً أقارب بالمصادفة ليس إلا . . . فلماذا يجب أن أحبهم وأراعي مزاجهم وأتحرى مرضاتهم ؟؟ ولا بأس بالحب فاني مستعد أن أحب الدنيا كلها ما دام هذا الحب لا يضايقني ولا يفرض علي أعباء لا أطيقها أو لا أستسهل حملها .. ولكن الملازمة وتوخي المرضاة هذا تكليف ثقيل جداً . هذه المسكينة مثلاً لا بد أن تخرج مع أخيها أو أبيها أو لا أدري من أيضاً من هؤلاء الذين هم أهلها بالصدفة . . . لماذا ؟؟ ماذا جنت ؟؟ ما ذنبها هي إذا كان هذا أو ذاك قد شاء أن يكون أخاها أو عمها أو أمها ؟ . . لماذا لا تخرج وحدها فيتيسر أن تشعر بأن لها وجوداً خاصاً مستقلاً عن وجود هؤلاء الآباء والأمهات والأخوة والأعمام والخالات الخ ؟؟ والحق أقول أني تحسرت عليها ولها ، فانها مسكينة ولا شك تحيا حياة مرهونة بحيوات أخرى على حين لكل من هؤلاء الآخرين حياته الخاصة المستقلة التي لا علاقة لها بحياة هذه الفتاة

وقد كانت تضحك وهي واقفة تنتظر الترام مع أقرباء الصدفة ومن حقها أن تضحك ، فقد نزلت الى الأرض وداست قشرتها الصلبة بقدميها الصغيرتين وركبت الترام — أو هي ستركبه بعد دقيقة — ورأت الناس عن قرب بعد أن كانت تراهم عن بعد كالأشباح ، وألفت نفسها سابحة في لجة الحياة التي لا يمكن أن تحسها أو تدركها وهي في شرفتها . . . ثم كانت في الريح تحلم بدنيا لا تعرفها فهبطت اليها وصار الحلم حقيقة والظن يقيناً . . . فلها أن تضحك وتسر

وأنا ؟ أنا أبدي لها المودة فتتلقاها بهذه الجفوة والنفور والتخنف والتدلل كأنما أسيء اليها بحبي لها ، وأجني عليها بميلي اليها ، أو كأنما من الشتم لها أني تركت مئات ومئات من الفتيات وآثرتها عليهن جميعاً !! فلو أني كنت أبدي لها الكره والاستخفاف والاشمئزاز أكانت تقابلني بشر من هذا ؟؟ كلا ! بل كانت حينئذ تتعمد أن تبدو لي وتتكلف أن يكون ظهورها في حفل من الزينة ، لأنه كان يشق عليها في تلك الحالة أن رجلا لم يصبُ اليها ، ولم يفتنه جمالها ، ولم يسب لبه حسنها ، وكان هذا الاحساس خليقاً أن يدفعها الى التحدي — غير أنه تحد ينطوي على استجداء للاعجاب من الرجل . وأنا أقول الاستجداء وأعني ما أقول بلا نقص . ذلك أن الجمال هو السلاح الوحيد الذي وُهبته المرأة ، وليس لها في كفاحها في الحياة سلاح غيره ، فاذا فقدته فحكمها هو حكم كل مناضل ليس له سلاح ، وصار أعزل لا يملك كرا ولا فرا ولا مصاولة ولا محاورة ولا مداورة . وماذا يملك الأعزل أمام الشاكي إلا أن يذعن لقضاء

الله فيه ولتحكم القوة المسلح ؟ ؟ ولا فرق بين أن تفقد السلاح الذى تصول به وتجول ، وبين أن يثبت لك أنه قد صار لا فعل له فان عمل السلاح وغريته أن يحدث أثره لا أن يكون فى يدك والسلام . فاذا لم يكن له أثر كأن يكون قد فله شيء ، أو لاق ما يثنيه أو يرده أو ما يصبر على وقعه ولا يتضعضع أمامه ، فهو وعدمه سيان ؟ كذلك المرأة — إذا فقد سلاحُها قيمتَه فلم يعد جمالها يحدث أثره المطلوب فى نفس الرجل فانها تكون فيما تحس حيال هذا الرجل عزلاء لا حول لها ولا طول فلا يسعها إلا أن تخضع وتذعن وتروح تستجدى العطف وتلتمس الرضى ، وتتوصل اليه باللين والصانعة والتحبب والاغراء بعرض كل ما عندها من المفاتن . وكأنى بذات الثوب الأرجوانى قد خيل اليها أنها قد ضمنت حبى واستوثقت منه ، فهى لا تبالينى لأنها فى ظنها منى على يقين ، وأولى بها أن تعنى بغزو قلب غير قلبى — قلب آخر لا يزال مستعصيا عليها نابيا فى يديها — أما أنا فقد علق جناحى بالشرك فكيف الفكاك وأين المهرب ؟ وهذا ظن كل امرأة معشوقة من الرجل الذى تعرف أنه يحبها وتأنس منه الصبر على دلالها ، وليس يصرفها عن ذلك إلا أن تساورها الشكوك ، وتدور فى نفسها الوساوس ، ويحك فى صدرها الخوف من ملل الرجل وضجره من هذا العبث . ولو كانت تعرفنى لخافتنى فما أنا ممن يصبرون على هذا اللعب . وإنى لأحبها — أو هكذا يخيل إلىّ — ولكنى فيما أظن أحب نفسى أيضا . وحبى لها هو بعض حبى لنفسى ، وليس الأمر على العكس ، وحب الرجل للمرأة معناه أنه يريدها خالصة لنفسه ، لينعم بها وحده ، ويستأثر بالمتعة المستفادة من جمالها . وليس معناه أنه يريد أن يعذب نفسه وينقص عيشه ويسود وجه الحياة فى عينيه . أما حب المرأة للرجل فمعناه أنها رأته — بغريزتها لا بعقلها فانها تنقاد لغريزتها ولا تفكر بعقلها — أحق رجل بامتلاك زمامها والسيطرة عليها وأكلها وهضمها . فالرجل يحب نفسه حين يحب المرأة أما المرأة فانها تطلب الرق وتسعى للتضحية الكبرى حين تحب الرجل . فهو لهذا أنانى فى حبه ، وهى لهذا مضحية فى حبها . فليس عجيباً أن تحتمل هى المكاره فى سبيل الحب لأن حبها تضحية كبرى فأولى أن تصبر على التضحيات الصغرى ، بل العجيب ألا تصبر ولا تحتمل . أما الرجل فهو كما قلت أنانىّ فلا صبر له على تضحية ولا احتمال منه للعذاب إلا وهو كاره أو عاجز عن الفوز بالراحة ، لأن طبيعة حبه لا تبيح له أن يفهم هذه التضحية ولا تجعله مستعداً لها . ومن هنا كانت المرأة أوفى وكان الرجل أغدر بالمعنى الشائع لا الحقيقى ، فان الوفاء من الرجل افلاس نفسى وخيانة لطبيعته التى فطر عليها . وهذا هو الأصل ولذلك رأينا الرجل فى تاريخ الانسانية يتخذ المرأة والمرأتين والثلاث والأربع وتكون له الجوارى فضلا عن الزوجات أو من هن فى حكمهن ، ولم نر المرأة تتخذ من الرجال اثنين أو ثلاثة أو أربعاً ، إلا أن تفعل ذلك سراً وخفيةً واعلانٍ . ولكن الرجل لم يكن يعمل هذا سراً بل جهراً ، وكان يقيمهن فى بيت واحد . وكانت المرأة ترضى وتذعن وتسعى سعيها لتكون هى الأثيرة لا الوحيدة . وكان الرجل لا يكف عن الاشتهاء والتطلع الى غير الموجودات ، والتبرم بالموجودات ، وهذا هو قضاء الطبيعة وحكم الفطرة فى الرجل والمرأة . فمن كان يشق عليه أن يقرأ هذا فليتدبر تاريخ الانسانية قبل أن يفتح فمه ، وليحاول أن يعلل هذا التاريخ على وجه مقبول معقول قبل أن يعترض . ثم فليتأمل حاضر الانسان وليسأل نفسه عنه أتراه يختلف عن الماضى إلا فى المظهر دون المخبر والجوهر ؟ ؟

فالوفاء — فيما يتعلق بالرجل — أكذوبة ومنافاة للطبيعة ، ولكنه فيما يتعلق بالمرأة صدق واخلاص للطبيعة ؛ ومن هنا أن المرأة لا تزال تتهم الرجل بالغدر والتحول والتقلب وقلة الثبات . وهذا هو تفسير الغيرة الشديدة من جانب المرأة ، وهى غيرة لا تقاس اليها غيرة الرجل مهما عظمت ، لأن غيرة الرجل على امرأته هى كغيرته على كل ما يملك ؛ فاذا أمن أن يضيع ملكه لم يبال ما دون ذلك مبالاة تذكر ؛ فغيرته فى الكليات لا فى الجزئيات والتوافه ، ولكن غيرة المرأة مرجعها إلى ادراكها — بغريزتها الذكية التى تهديها فى حياتها — إن الرجل لا يستطيع الصبر على الوفاء ، ولا يملك إلا أن يتحول ويتقلب فى حبه ، وإلا أن يصرف قلبه من هنا إلى هنا ، فكل حركة منه أو لفتة نذيرٌ منه عندها بوشك هذا التحول ، وفقدان ما كان لها عنده من مقام ومنزلة وايثار ، وعودتها واحدة من مئات الآلاف اللواتى لا يبالين ولا يحفلهن ولا يحسهن أو يفطن إلى وجودهن ، فهى غيرة على الوجود وكل ما ينطوى عليه من الحقوق والمزايا ، ولذلك لا تنفك مشبوبة مضطرمة

ومن حق ذات الثوب الأرجوانى أن تغار وتقلق ، ويجب